



قديماً قالت العرب: "الطبع غالب التطبع"، وقالت: "العادة أملأ بالإنسان من الأدب". وقالوا أيضاً: "العادة طبيعة ثانية". هذه أمثلة عربية جاءت عن خبرة وتجربة، فالذي طبع على المكر والخديعة، والغش والكذب، والتلاؤن والتقلب، يصعب أن تراه ثقة صادقاً عدلاً - لا يعني ذلك أن الصادق في إصلاح نفسه لا ينجح -. والذي يُخفي خلية من أخلاقه، أو طبعاً من طباعه، مهما حاول إخفاءها فإنها لا بد أن تظهر يوماً، طال الدهر أو قصر؛ لأن الأخلاق لا تخفي، والتملق والتصنّع والتکلف لا يدوم ولا يبقى، كما قال حكيم العرب:

وَمَهْمَا تُكُنْ عَنِ امْرَئٍ مِّنْ خَلِيقَةِ \*\* وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَّى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

ولقد اهتم العرب بهذه المسألة اهتماماً واضحاً، فقد دلّوا على أمثالهم بقصص من واقع حياتهم، فمن ذلك ما قاله أحد العرب: دخلت البادية فإذا بعجز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جرُو نئب، وهي تبكي، فقالت: أتدرى ما هذا؟ قلت: لا. قالت: هذا جُرُو نئب أخذناه صغيراً، وأدخلناه بيتنا، وأرضعناه من لبن الشاة، فلما كبر قتل الشاة كما ترى، وأنشدت تقول:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي \*\* وأنت لشاتنا ابن ربيب  
غذيت بدرها ونشأت معها \*\* فمن أباك أَنَّ أباك ذيب  
إذا كان الطياع طياع سوء \*\* فلا أدب يفيد ولا أدب

وهذا أعرابي يذكر لنا حادثة عايشها فيقول: كنت في سفر، فضلت الطريق، رأيت بيتك في الفلاة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف إنزل على الرحب والسعنة، قال: فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك، إذ أقبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف، فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، مالنا للضيف، فلما سمعت كلامه، ركبت من ساعتي وسررت، فلما كان من الغد، رأيت بيتك في الفلاة، فقصدته، فإذا فيه أعرابية، فلما رأتنى قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، مالنا للضيف. فبينما هي تكلمني، إذ أقبل صاحب البيت، فلما رأني قال: من هذا؟ قالت: ضيف، قال: مرحباً وأهلاً بالضيف، ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما مر بي بالأمس فتبسمت، فقال: مم تبسم؟ فقصصت عليه ما صار مع الأعرابية وزوجها، وما سمعت

منه ومن زوجته. فقال: لا تعجب، إن تلك الأعرابية التي رأيتها أختي، وإن زوجها أخو امرأتي هذه، فغلب على كلٍّ طبعه.  
و قبل هذا وذاك، يقول الله - تبارك وتعالى - : {وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ}. قال ابن عباس: "هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر". ولقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - : أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَثَلُ مَا بَعَثْنَا اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبْلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسُ فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثْنَا اللَّهُ بِهِ فَعَلَمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ)).

والآن نعود إلى السؤال المطروح: لماذا لا يثق الشعب بوعود النظام السوري؟

والثاني: أنَّ الشعب السوري رأى من الأمثلة والمشاهد الواقعية من هذا النظام ما يدلُّ على أنَّ كُلَّ صفة من الصفات الذميمة المذكورة وغيرها خلقةٌ وطبعٌ من طباع وأخلاق هذا النظام، فكيف يثقون به؟! رأوا كيف أعلن المدعو بشار العفو عن كلِّ المهجَّرين الفارين من ظلمه وظلم أسلافه –إثر دخول الأميركيان دولة العراق– فعاد المهجرون السوريون من الثمانينات إلى بلادهم بعدما أعلن النظام العفو عنهم... فلما دخلوا الحدود السورية تلقّتهم الأجهزة الأمنية بالاعتقال والزج في السجون، ولا أنسى –والله– ما قال لي رجلٌ شَيْبَةُ رُومي في زنزانة، ورُومي ولده في أخرى، لا أنسى ما قاله بعد نزوله من غرفة التحقيق، وقد ضُرب بالسياط على رجلِيه، وسمع أقذر المسبات، وهو ابن السبعين –وهو من مدينة إعزاز المحاصرةاليوم بدببات النظام وعناصره الشبيحية والأمنية، فرجَّ الله عنها وعن أخواتها من المدن السورية– قال لي: ليت صاروخاً أمريكياً نزل بستنا، ونحن في العراء، فأهدي بالعائلة حميّها، ولم نعد إلَّا بلدنا، لنلق، من هؤلاء ما نلقاه.

فكيف يثق الشعب بهذا النظام؟ وقد خرج وزراؤه وإعلاميوه داعين المهجّرين إلى تركيا من أهالي جسر الشغور وما حولها بأن يعودوا إلى قراهم وبيوتهم؛ لأنَّ الأمن والسلام ينتظرونهم... فلما صدَّق ذلك بعض العوائل، كانت النتيجة قتل عائلتين عائدتين من تركيا، فكيف يثق الناس بهذا النظام؟

والثالث: أن هذا النظام مسلسل بالجرائم والآثام، ومؤصل بالسيئ من الأخلاق، وما كان أبوه صالحًا، فطيبٌ وصلاحُ الآباء ينفع الذرية والأبناء، كما قال البارئ - جل وعلا - : {وكان أبوهما صالحًا}، وبال مقابل فشناعةُ الآباء وقدارُهم وسوءُ أخلاقهم تنسحب إلى الذرية والأبناء، فانتقلت جرائم الأب حافظ وأخيه رفعت إلى الآبن بشار وأخيه ماهر ومنْ حولهما... وبعد هذا لا ننسى قوله - تبارك وتعالى - : {والذِي خَبِطَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا}. فكيف يثق الشعب بمن كان أبوه فاسدًا طالحًا، مجرمًا قاتلاً، طاغية ظالمًا...؟!

والرابع: أن حال هذا النظام مثل حال الراعي الكاذب الذي أوصله الكذب على أهل قريته إلى أن تركوه في النهاية فريسة للوحوش والذئاب: وعد الرئيس بالإصلاح؛ فجاء القتل والسجن والاعتقال، وعد برفع حالة الطوارئ، فارتفع عدد القتلى وزاد، يقول: إن التعديل في الدستور يحتاج إلى أيام أو شهور... وقد غير الدستور ليفرضه على عمره في لحظات... فكيف يتحقق الشعب بالراعي الكاذب؟!

والخامس: أنَّ هذا النِّظام غُذِي من خيراتِ الْبَلَادِ، ورُشِفَ من حَلِيبِ أَغْنَامِهَا وَأَبْقَارِهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالانتِمَاءِ لِهَذَا الشَّعْبِ، وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ الْحَبَّ وَالرَّفْقَ وَالرَّحْمَةَ بِأَطْفَالِهِ وَشَيْوَخِهِ وَنِسَائِهِ، بَلْ وَزَرَوْعَهُ وَثَمَارَهُ وَحَيْوانَاتِهِ، فَهَا هُوَ يَقْتُلُ الْأَطْفَالَ وَلَمْ يَشْعُرْ أَنَّهُم مِنْهُ، وَيَقْتُلُ النِّسَاءَ فِي بَانِيَاسِ وَغَيْرِهَا وَلَمْ يَشْعُرْ بِرَابِطِ أَخْوَيِنَّ، وَيَقْتُلُ الْأَبْقَارَ فِي جَسْرِ الشَّغْفُورِ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ طَبَاعُهُ بِأَبْلَانِهَا، وَأَشْعَلَ النِّيرَانَ فِي زَرْوَعِ الْفَلَاحِينَ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِأَثْرِ غَذَائِهَا الَّذِي نَبَتْ جَسْمَهُ وَقُوَّتْ مِنْ حَبَوبِهَا وَثَمَارِهَا! أَجَلْ لَنْ يَنْفَعَهُ ذَلِكُ، حَتَّى يَنْفَعَ جِرْوُ الذَّئْبِ عَنِيَّةً الْأَعْرَابِيَّةَ وَحَلِيبُ شَانِهَا.

ولَذِكَ تَجَدُّ الشَّعْبُ السُّورِيُّ يَوْاصلُ اِنْتِفَاضَتِهِ، وَتَوَسَّعُ مَسَاحَةُ مَظَاهِرَاتِهِ، وَتَأْتِي فِي الْلَّيلِ وَالنَّهَارِ... مَعَ وَعْدِهِذَا النِّظامِ بِالإِصْلَاحِ، وَرَفِعِ حَالَةِ الطَّوارِئِ... فَلَا ثَقَةَ بِوَعْدِ بَشَارٍ؛ لَأَنَّ طَبَعَهُ وَخَلْقَهُ الْكَذْبُ وَالْزُّورُ، وَتَارِيَخُهُ مُسْلِسِلٌ بِالسَّيِّئَاتِ وَالشَّرُورِ، وَكَمَا قَالَ الْعَرَبِيُّ:

كلَّ اُمَرَّيْ صَائِرٍ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ \*\*\* وَإِنْ تَخْلُقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينٍ

المصادر: